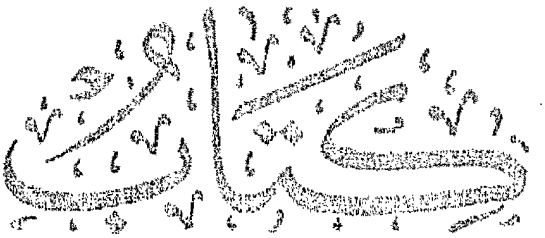

رياض الأدب

المؤلف

ابراهيم زهدى

سوف لا ترى الناس نجما يصير بدرا
الا بجماك فى سماء الادب بمصر
عبد الحميد جلال

الطبعة الاولى

(كل حق محفوظ للمؤلف)

obeikandl.com

إهداء الكتاب

والدي العزيز

أهدي الى مقامك السامي كتابي الذي سطرته يدي ولطالما تاقت نفسي لاظهار ما غرسته يداك الكريمتان وها أنذا اليوم أرهن على ان ما غرسته قد أينعت ثماره وفاح أريجه — ولي الشرف بأن تكون هديتي موضع قبول سيدي الوالد ولو أنها لا تليق بشخصه الكريم ؟

ولدكم

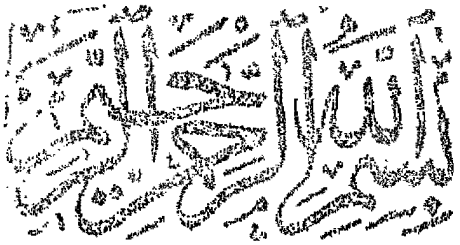

الحمد لله الذى جعل القلم بلبل الروض وجليس الأنس ولسان الأديب وترجمان الفكر وحياة الفرد والجمع والصلاة والسلام على سيد الانام محمد وعلى آله وصحبه وسلم (وبعد)

أزف الى كل محب للعلم تلك المقالات التى هى نتائج ذلك القلم العاجز لما فيها من عبر وعظات

والله أسأل أن ينفع بها أبناء الوطن الاعزاء ؟

المؤلف

ابريل سنة ٩١٧ ابراهيم زهدى

obeikandl.com

« الوقت »

(الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك)

« حكمة عربية »

ألوقت كنز سريع النفاد تسلمه الكل وهو يفيض على الكل والكل ينفقون منه . غير مراعين جانب الاقتصاد فلا حريص عليه ولا ضنين به بل هو طريق الحياة نسير فيه قاطعين مسافات الأيام ومراحل العمر حتى اذا انقضى الزمان وقربنا من نقطة الانتهاء ندمنا آسفين ورمنا الرجوع سبيلا ولكن هيهات فقد كان ذلك مستحيلا .

بل هو فى الحقيقة عين الوجود ومظهر الحياة لكل موجود والكثيرون لا يشعرون

كلنا نعلم أن الوقت ثمين ولكننا ننفقه بأيدى التعمد ونفرط فيه كل تفريط بل نعرضه للفقدان ونبيعه بأبخس الاثمان أو نبحث عمن يضيعه لنا حتى غدا ذلك من أهم شواغل حياتنا فاذا ظفرنا به كنا فرحين . كلنا نقدر الدراهم حق قدرها ونحرزها ونضن بها ضنا بليغا غير إنا لسوء الحظ نستخو بوقت طويل نقضيه مع الغير أولا جل الغير ونفادى به جزافا

أو نكون شاكرين لمن يسلبنا وقتنا أو يجعلنا نتفقه ونحن غير شاعرين كأن الوقت حمل أثقل كاهل الجميع فهم يبغون منه خلاصا ويتفنون متسابقين لايجاد الاسباب التى تؤدى الى افنائه وما هذا الا من ضعف الانسان

تمر الايام وتتوارى السنون وراء حجاب العصور ولا يبقى منها فى مخيلتنا الا ذكراهم الحوادث التى صرت علينا بها وهو ذكر ضعيف مأثور كذكر باقى الحوادث التى نقرؤها فى عالم التاريخ ونحن لانعرف من سابق أيام حياتنا منذ نشأتنا فى عالم الوجود الا اللحظة التى نحن فيها وأما مامضى من العمر فقد غاب فى عالم الأجيال ولم يبق له الا تأثير ضعيف فى حالة كل فرد منا . نذكر ونفتخر أنه كان ثمة مايوجب الذكر والافتخار أن كل فرد يأتى الى مسرح الوجود ليمثل دورا ثم يمضى ليأتى غيره وهكذا لاتزال متعاقبين ولا شك أن شأن كل يقاس بالدور الذى يمثله سواء أكان فى العلم أم فى السياسة أم فى الشجاعة أم فى غيرها وفى نفس هذا المسرح نرى صور الأمم المتقدمة والشعوب الغابرة ورجال العالم العظام ومشهورية الأولين الى أن يأتى يوم لا نكون به

من المشاين لأن سرعة عظيمة تدفعنا دوما الى نقطة الانتهاء فلا نزال نسير مدفوعين . ومع هذا فنحن نبدد ما يفيض لدينا من الوقت ونضيع فرص الزمان عبثاً بل تقضي الايام واحداً بعد آخر أملاً بمجيء الغد وما يليه كأننا ننتظر تقضية الايام فرجاً وما في ذلك من فرج بل هو العمر يمضي ونحن غير منتبهين مما يدل على أن الناس تدأسأموا استعمال الوقت ولم يقدروه قدره وما كانوا لعمري بمنصفين

نرى كثيرين يقضون الاوقات في اللهو والمسرات فيجهدون النفس لايجاد ساعة بالطرب يحيونها وفرصة للذات يقتنصونها حاسبين أن سعادة الحياة قد انحصرت بهذه الغاية وآخرين يقضون الايام بين المشاغل وسائر الأمور التي يقضي بها الوقت حامدين الى قتل الاوقات عمداً وآخرين ما عرفوا قط للوقت قيمة فأضاعوه وبددوه بغير هذه الأسباب والكل قد اشتركوا بالمخالفة ضد الوقت كأنه عدو عمومي للجميع وما هو لعمري عدو بل هو الصديق الأمين الذي باحرازه نحرز المعرفة والعقل وحسن الذكر ونحن دوما نمن الايام قبل مجيئها فاذا جاءت ذممناها وان سمحت أسفنا عليها

فالوقت معزز لدينا فى الاستقبال مذموم فى الحاضر مأسوف عليه فى الماضى فأعجبوا لحبيب مذموم

أشهر رجال العالم الذين اشتهروا فى عالم التاريخ الماضى والحاضر بالعلم والعرفان والفضل والفخار والشجاعة والسياسة والصناعة والاختراع هم الذين عرفوا قيمة وقتهم فلا أضاعوا منه لحظة عبثاً ولا تركوا منه دقيقة تذهب سدى وهكذا تقدموا والناس واقفون وساروا والآخرون متأخرون

فنبه الذين هم فى رقاد الغفلة وأنذر الذين بنشوة الاهمال والسكون أن يهبوا الاغتنام الوقت واكتساب فرص الزمان فهو عزيز اذا مضى لا يعود وان أبلى بالحرمان لا يجود بل كل دقيقة تمر منه تنقص من العمر المحدود

« الأمل »

على الرجاء يعيش الناس كلهم
والدهر كالبحر والآمال كالسفن

يحدث للانسان أن يصاب بنكبة عظمى فيقع فى يأس قاتل يضيق الصدر ويظلم الفكر ويعمى البصيرة ويوهن العزيمة ويذهب بالشجاعة ويطمس نور الأمل ويزهق الروح

فيحكم المرء وهو على هذه الحال بأن لا علاج لمصيبته ولا سبيل الى تلافي المكروه . فيقعد عن السعي في اصلاح ما تلفه واستعاضة ما فقد فتمر الايام فالأسابيع فالشهور فالسنون فيمضي العمر دون أن يفيق من سنته فيكون الذنب في نكبته للقضاء والقدر ولكن الذنب له وحده في قعوده واستسلامه . إذ أنه لو أمعن في أمره النظر لتحقق ان لا فائدة ترتجى من اليأس وأن استسلامة عقيم سقيم وان الانتحار خير من يأس يلازمه خطوة حتى يوصله الى القبر فالأجدر بالعاقل اذا اشتملت عليه مصيبة أن يملك نفسه ولا يندفع مع تأثير انفعاله . ولا يستسلم لعوامل ضعفه ولا يجسم يأسه بل يستمد من الضعف قوة ومن المصيبة حيلة ومن القنوط أملا ومن الوهن عزيمة ومن الموت حياة وبدلا من أن يقضي أيامه قعيداً كسلانا نادبا حظه شاكيا من سوء طالعه ناقما على دهره صاخبا على الليالي نائحا على الغوالي واللآلي ذاكراً ليله الاسطع ونهاره الاشرق . واثيا تلاده وطارفه باكيا صامته وناطقه وعقاره فليبادر الى العمل بجد واجتهاد وليسع الى الفائدة فتمضي الايام يتبعها الشهور وتتلوها السنون

فيشعر ذات يوم الا أنه مالك أمره وقد تحقق بعض أمله الذي استحال تحقيقه عند وقوع المصيبة

« الحياة »

تعب كلها الحياة فما أعجب الا من راغب فى ازدياد

« أبى العلاء المعري »

تعساً لك أيتها المملوك الفاجرة . تريدين سلب عفافى وأنا أبن الطهارة ووليد الشرف . تريدين أن أخضع لجلالك وأنظر لبهائك . لافالحتف أقرب لرأسى من أن يمس جلالك تاجها المعقود . تريدين أن أتجرع شرابك فى كأس رسبت فى قاعها الاقذار والادران فلا أجرع منه جرعة الا وأمجها الا أنك أيتها الحياة مشوهة الأديم كالحة اللون فى عيني . ماذا عساني أعشق من محاسنك وأذكر من حسناتك (وكلها سيئات) أتظنين انى أبش لك وانت عابسة وأرضاك وأنت لست حقيقة بالرضا . أيتها الحياة ذقت من مرارتك أقداحا وتوسدت لأجلك شوك القتاد وتلحفت برداء هو ظلمك وعنادك . سلبتى سلاحا كنت ألق به عوادى الدهر وأرد به غوائل الايام

فصرت أهيم بالغاب والربى بين سبع عقور وليث هصور . تركتني بين المغاور والاكام بين وحوش قاسية حيث لا رحمة ولا ديار . اليك عني ياشقاء الحكماء وهناء الأغبياء فأنا بعيد عن جلالك سعيد ببعدك وجفائك . ترومين قتلي بسمك الناقع وتزعمين انه رضا بابن الطلا والخندريس براء منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب . علمتني سويعاتك وقد طفحتها في بليل صفائك بل يوم شقائك انك خداعة خلابة ما كرة فاجرة لا يؤمن ابتسامك ولا تغر نظراتك

مهلا فسوف ترين أني لا أخضع بجورك واني لم أكن ذلك الخطاب الذي تمنى الموت فما ان تمثل له شبحه حتى ندم وتقبض وادعى انه يطلبه الا يستعين به على رفع اثالته . لا وحق الله ما أنا ذلك الخطاب واناك وان كنت كأسا من العلقم فالقبر كأس من الشهد

(انتحار فتاة لارغام والدها اياها على الزواج)

سرى تيار الانتحار في الناس سريان الماء في العود وصار ذريعة يتخلص بها من لم يرغب في الحياة . فلجأ اليه الرجل

والمرأة سواسية حتى عم شره وفشى خطبه وأصبح أمراً عادياً يقدم عليه الصغير والكبير ألا بئس ما يفعلون . ولو عقلوا لعلموا أنهم لا يفعلون الا منكراً من العمل سودت به صفحاتهم وشوهت به سيرهم ولكن أكثرهم لا يفقهون وحالك ربى باناس قد خلوا وعن الرشد قد نأوا فعمدوا الى ما حرمته وفي كتابك المقدس ذكرته

ألم يدر بخلدهم ان جناية المرء على نفسه أكبر اثماً وأعظم ذنباً من جناية الغير عليه . وهنا لو تعقلت تلك العذراء التى أرغمها والدها أن تقترن بمن لا تهوى ظانا بأنها تشاطر اتراحه وتضاعف افراحه ولجأت الى طريقة أشرف من الانتحار لكان لها فى ميدان الحياة نصير ومعين يأخذ بيدها ويعضد رأيها اذ الشريعة السمحة لا ترغم على الزواج ولا تجبر على الاقتران بل جعلت ذلك أمراً مفوضاً لرغبة المتزاوجين

فاقدام هذه الفتاة وانتحارها لم يجيدها شيئاً مذكورا بل ذهبت بحياتها التى دنستها بفعلتها الشنعاء هذه فبئس ما فعلت ولا حبذا ما صنعت — غير ان ذلك لم يكن شيئاً مذكورا بجانب فعل أبيها اذا هو مطلق الصراح فى أعماله

وغدواته وهي مقيدة بقيود معنوية فهي على كل حال لها بعض العذر ان لم يكن كله

وليت شعري ما الذي حمل ذلك الشؤوم على تشويه برأيه بعد ما رآى اعراض ابنته وفلذة كبده أن يلقى بها بين يدى من لا تهوى — أكان لكثرة ماله أم لوجاهة قدره اللهم لا هذا ولا ذاك غرض العذارى ومطالب النساء

أعزب عن باله وغرب عن ذهنه أن الزواج ان لم يكن حبله متينا وأواصر الزوجية وثيقة وقاعدته الحب لا يلبث أن تتقوض أركانه وينهد كيانه وتعفى جدرانه فيجر الى شقاء العائلات وتعس الأطفال ويفضى الى الانفصال العاجل

أظن ذلك الجاهل ألغرأن القلوب أوعية تملك وتملأ بما يحب المرء ـ ظن فاسد وزعم كاذب فالقلوب لا تملك قسراً والنفوس لا تنقاد قهراً فهي ليست مما يتأثر بمؤثرات الانسان وانما تتأثر بعوامل الطبيعة والميل الفطرى التى جبلت عليه القلوب

واهالك أيها الأب القاسى أترغم فتاة فى ريعان شبابها ظهرت فى الوجود وكلها آمال بمشاركة زوج تميل اليه ويميل اليها ليكون ذلك أدعى الى الألفة والمحبة لأن كلا منهما

شريك الآخر في الباساء والضراء بمن لا ترى في وجهه الا شراً ويتمثل لها شخصه بأقبح صورة. أين تنجو من عقاب الجبار وأين تفر من ربقة الحق ومن غضب البرية التي ترى أعمالك سبة لك لا تمحى حتى يعود كل مستحيل ممكناً ورحمة عليك أيتها المسكينة التي ذهبت ضحية الطاعة والخضوع وشهيدة الوفاء. قتلت دون أن تقترن ذنباً أو تجني اثماً وكان قاتلك والدك الظالم

رحلت أيتها الفادة الى عالم الابدية طاهرة النفس نقية القلب أقترن الموت بك فسلام أيتها الراحلة الى دار الخلود

« الحب »

الحب أساس العمران وواسطة عقد الاجتماع وخلاصة النواميس الأدبية وأكبر الفضائل البشرية وهو مهذب النفوس ومرقي العقول ومحيي العواطف ولولاه لكان الانسان وحشاً ضارياً ولا نفصمت عرى الاجتماع فبطلت العائلات وبادت الأمم وهلك نوع الانسان

— الحب ربيع الحياة وآلة العيش ورباط الانسانية وأصل الخليقة — بدونه الحياة حمل ثقيل وبه السعادة المبتغاة

أن فى خلقة آدم مظهراً من مظاهر الحب تتجلى أمام البصائر النقادة بأجلى المظاهر . ان الله سبحانه وتعالى نفخ فى التراب من روحه فخلق آدم ثم خلق حواء من ضلعه اليسرى بنفخة من ذلك البوق الالهى الا وهو الحب . هل وجد انسان لا أمل له — الأمل هو ريب الحب وجزء من أجزائه — الحب هو تلك الخمر الالهية والعصير الربانى الذى تنفجر ينابيعه من نفوس تلك المخلوقات — هو ذلك الدخان الطاهر المادة الذكى الرائحة الذى يتصاعد من بخار الزفرات والتنهدات

الحب هو ذلك القمر المنير الذى يضىء القلوب ويطرح عليها أشعة من الخيبة والعظمة هو ذلك الرباط الوثيق بين المحب وحبيبه لولاه ما كان التناسل الذي هو علة بقاء العالم

هو ذلك النسيم العليل الذى يهب على القلوب فيرطبها وينعشها بذكرى الآمال

الحب معهد جليل تتلقى فيه الناس دروساً فى التربية والاخلاق فما أجلها من دروس تمتزج فيها الانفس وتتناجى فيها القلوب وتحيى وتنعش من عثارها . فما ألذه وما أشقاه وما أحلاه وما أفتاه . مسكين من أصابه سهمه وتمكن من

فؤاده الطب. ولقد عالجه العلماء وبحثوا فيه فلم يهتدوا الى تعليل يرتاح اليه العقل وغاية ما عرف انه سيال من السيالات العصبية أشبه بشيء بالمغنطيسية الحيوانية أو لعله نوع من الجاذبية التي تربط الاجرام السماوية بعضها ببعض وعليها تتوقف الموازنة بين السماء والأرض ونسبة الطب الى جسم العمران كنسبة الجاذبية الى جسم الكون

— الطب هو ميل نفساني يحمل المرء على تفضيل شخص على سائر الناس وذلك الميل نتيجة احساسات داخلية تجذبه نحو الآخر —

الطب الذي أنشده هو الطاهر النقي المادة الذكي الرائحة والطيب الابكم هو ذلك النور الالهي الذي ينبعث من نور القلب فيحيي المحيا ويتموج في العين — ذلك الدخان الذي يخفى على ذوي البصائر المريضة والنفوس الشهوانية والعقول التي لم تخمر بعد لترمو على شاطئ الانتصار لذلك الطائر السماوي الا وهو الحب —

فلما يوجد انسان بدون أن يحب الا اذا كان وحشاً ضاريا «ولا أخال الوحش الضاري الا انه يحب » قد قدّ قلبه

من حجر صلب لا تؤثر فيه مناهل العبرات ومؤاسات الدهر
لعمري ان هذا ليس بأنسان وحريّ به أن يعيش في وسط
أجمة ترتمي فيها الابل ولكن أجل الابل صنف من الحيوان
رقيق الشعور يتأثر بأقل مؤثر فهو يتيه عجبا ويثمل طربا عند
ما يترنم بنغمة عذبة تحل في قلبه محل الروح في الجسد
فكيف بالانسان وقد رأى ذلك الشعور الحي يتمثل بأجلى
الصور في هذا الحيوان الأبكم

فالحب هو حياة النفوس ومرقي الشعور ومملي على الوجدانات
أحاديثها طيبة لولاه لانقرض النسل وباد على بكرة أبيه ؟

﴿ الحرب ﴾

الحرب رسول الفناء ترسله المطامع الأشعبية على العالم
فينشر دعوته دعوة الدمار والخراب ويبرز هيمنته وسيطرته
فتر تعد منه الوحوش في مرابضها وتهيم على وجهها فارة من
هوله ويستولي على العالم الجزع والهلع فما أسوأه رسولا وما
أشأمه داعيا

الحرب كلمة سهلة النطق كبيرة المعنى عظيمة الأتباعة
تقلب العالم الآمن في سربه المطمئن في مسكنه رأسا على عقب

فتقوض العروش وتهدم مآثر السالفين والحاضرين وتجدد المحسرات . تبيد الحرث والنسل وتهلك الفرد والجمع تبعث بالقيامة وتنذر بالساعة ساعة يشيب لها الوليد فى مهده وتتصدع ظهر الشيخ فى مسكنه فما أعظم هولها وأفظع ضررها تقاد الرجال الى ساحات القتال وميادينه فهنالك تباع الارواح بيع السلع ولا مسئول عنها أمام الله والناس الا أولئك الذين اضرموا نارها وأذكوا لهيبها طمعاً فى الاستيلاء على شعب من الشعوب المستضعفة ليستغلوا أرضه تحت لوائهم وليستعبدوا أهله وقد خلقهم الله أحراراً فقبحاً ثم قبحاً لأمثال هؤلاء .

يرسل ملك المرتزقة أعوانه وجنوده ليحصدوا ثمراتها وهى تلك الانفس البريئة التى سيقت حيث حتفها وقبرها وقد خلفوا وراءهم بنيهم وذويهم يبكونهم بكاء مراً وينتدبونهم بدموع يرق لها الجماد فواحسرتا على رجال هم زهرة الأمة وعليهم عقدها وانحطاطها يموتون فى ساحة الحرب ولا أمثال فرداً من الافراد مهما كان قسطه من المدنية يود الحرب أو يرغب فيها اللهم الا اذا كان للذود عن وطنه الذى استظل بسماوة أفنائه وتغذى من ثديه الفضيلة والهدى أو عن الدين أو عن ساعٍ

يحاول مناضلته ومشاكسته أو باغ يحاول افساده فان الاحجام في مثل هذه الحال يعد من الجهل وقلة الرأي بمكان عظيم

فوالها للحرب بوتبالها فكم نسوة أصبحن أيامى وبنين وبنات نشر أليتم عليهم لباساً من حداد وهم البؤس نواصيهم وتالهم من العذاب ما يتفتت له الحجر الجلمود وتدمع له العيون ولكم سمعنا من الفظائع المروعة التي تجعل الاصم ينطق والابله يخطب واللبيب يتلعثم — فتقف الحركات وتبطل المشروعات وتكتسد التجارات وتودي بالعامر والزاهر ولو علم الناس كم من العلماء والنوابغ ما توافى جوفها وماتت معهم علومهم وسبقتهم الدنية الى قبورهم لتمنوا أن يكون بينهم وبين الحرب سد كسد ذي القرنين ولكن أنى لهم ذلك والناس جبلوا على أكل بعضهم بعضا كما يأكل كبير السمك صغيرها فنجنا اللهم من مصائب الزمن وهوله ونجنا من القوم الظالمين ؟

﴿ المدينة في ليلة ﴾

« أو صحيفة من الحياة »

« بقلم حضرة صديقنا الأديب عبد الحميد أفندي جلال »

خلقت ولوعا بالشمس . يستمد منها جسمي دفئا .

وتستقى عيناى من أشعتها ضياء . أكاد من غرام بها أسجد لها . لولا ان الدين عند الله الاسلام .

أحبها عند الشروق . وحياها من الحياء ندى . بسامة للعالمين والعالمون فى اكتئاب . كالحسناء تضحك من صميم الغرام وأحبها في الهجيرة قرصاً من لهب . يرسل خيوط النار . ومن عجب أن النعيم فى النار . وأحبها فى الاصيل . وهى للأفق تميل . خود تعطف على وامق . سمعت منه أنين العاشق . وأحبها عند الغروب . تفارقنا ليلا وفى الصباح تؤوب نال منها أعياء الرحيل ما بين الشرق والغرب وهى تسترد سناءها عن تنيا . فنسى لذلك البعاد . فى رداء من سواد . ولو استطعت من ولهى لصعدت اليها . واتخذت مأوى لديها . أو حرمت الناس أن يستضيئوا بأشعتها أو يستدفئوا حرارتها . وما أحلى الأثره فى الحب . فانها أمنية لكل قلب

غربت عني فى يوم شمسى . وكأنما غربت منى نفسى وألقى الليل في روعي ما يلقى الزنجى فى صدور الاطفال حين يطلع عليهم بحيا كالفحم رعب يعقد بهم حتى عن أيماءة البنان ويغلق أفواههم حتى عن همس الكلام وسمعا وسع الدجى

obeikandl.com

السماء بلآلئ النجوم . وبدّد في أرجائها العقد النثير . فأنى أخشى الليل خشية المملوك للأمير

نبابي مضجعي . وهل ينام الفَرِق ؟ ونبذتني حجرتي . كالجنة لفظت آدم والأسى بين جنبيّ نار لها ضرام — وما حال من فاوق من يهواه ؟ انه حال المليوع حتى يعاجله رداه

وأزمعت أن أنفلت من بين يدي الظلام وهو أيان يمت مُدركي . ففارقت كسر بيتي وطفقت أهرول في منعطفات ودروب . كأنها لضيقها سبيل اليائس يسعى الى آماله . والدور على الجانبين تكاد تحنو على بعضها متداعية لكال قطّانها . متماسكة الجوانب كصف من كهول يشدون أزر بعض . فبينا احداها يتراجع حياء اذا بآخر يتقدم سفاهة . وخيل لي أني زاحف بقرية النمل لولا مصابيح معضطربه الضوء . كعزم الرجل الخوّار . فقلت لنفسي « ما أظلم الدنيا لبنيها هؤلاء معسرونا . أموات في ثياب أحياء . يروضون أنفسهم من اليوم على وحشة القبور ويعاون في مواطنهم مرعى الأوباء المهنة في المستشفيات . فمن أين يتسرب اليهم عفاء العيش وان أبواب ديارهم لتضيق دون ولوجه » ولبثت

أفكر وماذا سوى بحديهم تفكرى فاذا بشبح يتهادى من
اليمين الى الشمال بقدمين من تجفين فلما دنوت منه أتيته
الفيته رجلا على عتبة الكهولة واتى القوى رث الملبس
أشعث أغبر قريح الجفنين ، مهزول الشدقين وقد أسند
خده المتجعد على كفه المتخذل وطالت أحدى يديه وقصرت
الأخرى فبرزت أصابع قصيرة من حذائه كما تظهر رءوس
الأفاعى من أفاحيصها وهو يقذف من فيه كلمات مفككة
الاوصال متباينة المعنى ، تارة يهمس بأخفت من صوت
المحتضر على فراشه وطورا يصرخ بزئير الاسد فى أجمته
وهو يشتد حماسة مزاولة كالبان اذا ماخلا بنفسه وأخرى
يبكى بدموع غزيرة حارة من عينين رانت عليهما غشاوة
وعجيب أنه وهو فى غمضيان العمياء وقفت به قدماه أمام
وصيد نخر السوس أخشابه لايسرطا رقا ولا يدفع سارقا وكأن
زوجته قد اعتادت منه أن يجيئها سليب العقل والدين .
فأمسكت خلف الباب فى انتظاره فلم يحشم نفسه الآبقة منه
عناء الطرق حتى توارى . فحدثت نفسى أو هى حدثتنى ولنها
لأمارة بالسوء أن أنظر من كوة صغيرة كيف تستأهل

هذه القرينة المنكوبة مثل هذا القرين السيّ وكيف تجزل وفادته وتحسن وفادته كما يفعل به الخمّار غير أنى لم أسمع الرجل الا صيحات سبابا كأنه يجرب معها المرأة أو يظهر أياسها بمظهر الكمي الصنديد . وكأن بينه وبين المهد جاذبية فما تم أن ارتمى عليه كأنه جدار يهد وكان الكرى الى عينيه أسبق من قدميه الى الحانة . فقلت نم أيها الحيوان مخمورا بعقلك تموت البلاد دمارا وثبورا . نم لا أبصرت عيناك ضوءا ولا نورا فما لمزريل لا يعد عينه اليك فتستريح وتريح

وسرت قليلا حتى طرق مسمعي أنة تقطر أسى انبعثت من قلب ذابل ضنى . هذا عليل أبدله الداء من صحته سقما ومن راحته ألما يبكي توجعا تكاد ثيابه عليه أن تكون كفنا وكأنه على الفراش خيالا وليس بدنا . وحوله أمّ أحق بالداء منه تبكي في صمت وتشكو في صمت . وفتاة وفتى لا يفقهان مما بالمكان شيئا ثم سمعت هذه العجوز تقول . « ولدي وفلذة كبدي عش لبنيك ودعني أموت . من لي بكنوز الارض أهبها لمن يشفيك » . هذا والدمع من عينيها يسيح وابنها في نزعه لا يعي . وكان الشقاء على محتم في حلّ

وترحال فشهدت مصرع الرجل ولم أملك ما أجود به غير قطرة من الدمع هي كل ثروة البائس ومناجاة لهذه الروح الهائمة « أيها الشاب الراحل لقد استرحت وستشقى بعدك ذووك » وذكرت قول من قال

مقابر من ماتوا من اوطان راحة فلا تبك اثر الهالكين جزوعا
فان تبك ميتا ضمه القبر فادخر لميت على قيد الحياة دموعا

وشاءت في الليل الاقدار . أن أرى ما أراه من التقائض في النهار . اذ أُلفيت عن كثب محفل عرس أهله بالعروسين في جذل : فأيقنت أن الليلة قد قُضي على أحدنا أن يتشبابه بيديه بل قضي عليه أن يسير الى جهنم الدنيا بقدميه . كذي جنة يساق الى الاعدام وهو ضاحك . وأعجب ما في أبناء آدم أنهم يهللون ويكبرون لأن رجلا وامرأة سيقضيان لبانتهما من الشهوة وقلت لنفسي وأنا أكاد أسخر منهم « من الشهوة خلقنا وللشهوات نفرح » . ثم خرج الجمع زرافات ووحدانا يتقدمهم حملة المشاعل كأنهم يرمزون الى ما سيلاقيه الزوج من شقاء كالسعير وهو واسطتهم يتبختر في ثوب قشيب جديد يستبدله في الصباح بآخر خلق بالي . كالممثل

في الليل من الملوك وفي النهار مملوك . وبين جموعهم أفراد تتنفس وتتفنى بنغمات لا اتصال بينها تبعث ازعاجا وتجلب إقلاجا. وما عاسرا أن على مقربة من دارهم روح فانت موجلة على الوجود ومقفاً على العيش الافليها كمو العرس إن صح أن تهنئوا به والا فاني أسأل السلامة منه لمن لم يلج بابه بعد

وكانت حلكة الظلام قد اشتدت كأنه سخم مذاب يسيل أو سميل من القار طام والسحب قد تلبدت على صفحة السماء كالمرآة علاها الصدأ . فكأني جلبت لنفسي الضر من حيث أردت بها خيرا

رب ساع مبصر في سعيه أخطأ التوفيق فيما طلبا

فسرت على غير هدى وظلام النفس كظلام الليل واذا بامرأة تتلوى كالحربا وتنعب كالبوم ونسوة حولها يتكلمن بأصوات منكرة لا تقبلها الأذن ولا يفهمها الذهن . وحاولت أن أفقه حالهم وأقف على حقيقة أمرهم فعييت لولا صراخ وليد حديث عهد بالحياة الدنيا قذفت به بطن المرأة الى حيث يجرع العذاب كؤوسا شتى فما تمالكت نفسي أن ضحكت وقلت عجبا . « لقد زدت التعساء في الدنيا أيها

الوليد عدداً مرحباً بك لعلك ستمت الاقامة في مستقر
الدعة وآنست في نفسك جلداً على أوصاب الحياة. أهلا بك
ولا بارك الشهر وثمرة الزواج لا تبك بل أدخر دموعك
لغد فقد تلمسها تتجمد عيناك ناضبة ان عشيرتك اليوم
تبسم أنها لا تعتصمك لأنك ستحمل عنها بعض ما تعاني
وهي تقطع مراحل العمر وأنت تبكي لأنك ولدت للعناء
ثم الى الفناء مصيرك. فكن على العيش حيراً كما ولدت حيراء
خلفت الوالدة تقر عينها بمثال زوجها تراه عنه بدلا اذا غاب
عنها. ورسمت خطوات معدودات طرق مسمعي آهات وانات
فاهتديت بنور مشبعث خفيل كبصيص الامل عند من حفه
الفشل الى نافذة لا تطل من الارض كثيراً. والنفس توافة
الى استطلاع الخفايا واستكشاف الخبايا فعمدت الى النافذة
لأرى ما بالمكان فألفيت امرأة تبكي زادها البكاء جمالا.
وحيالها رجل نصف لا شباب ولا هرم. يترقرق في محياه
كباوة الثم وحواليها غلامان زادهما الفقر حسنا فساءلت
نفسي ماذا عسى يبكيها؟ أهي دموع صدق أم الخداع
برسلها وكثيراً ما اقتدرت المرأة على تغيير عواطفها حتى ظننا

البدعة منها سنة سنة والوهم حقيقة . وما كان عظم الدهشة التي ملكت على مشاعري حين نضبت من مآقيها الدموع بغتة وتمثلت واقفة كالملهاة انتابها ذعر وقالت وصوتها يتهدج غضباً وكأن كلماتها شعلات لهيب .

« يازوجي وابن عمي لو علمت عظيم ما أنت قمين به ولست له أهلا . أنظر لنا نحن على الطوى سنطوي ليلنا . يكاد يؤدي بي وبولديك الظمأ الى الفناء كأننا أذنبنا قبل الوجود وكان عقابنا على يديك . واذا كنت ولدت أغلظ أكباداً من الابل فلا تشفق علينا . فاني أشفق عليك قبل اشفاق على نفسي لأنك تفيض بدمائك وتسرف في ذكائك وتسخو بشبابك بين اكداس الاوراق لتحصل بعد العناء على الارزاق ثم لا يجن بك الليل حتى تجلس على مائدة اليسر تعثر في دقائق ما جمعته في أيام وتبيع صحتك بالاسقام ولا يخطر بخلدك زوجة ولا غلام ـ كذلك شنشة أنك تحزن اذا ربح سواك وتُسر بخسارته مثلك مثل حامل الموتى لا يملأ الجذل قلوبهم ولا الدنانير جيوبهم الا حين يموت فقيد ولو كان عائلا . فان عاشت الناس أصحاء باتوا هم معدمين تعساء

ولو أيقنت أن انطلاقي عنك بالطلاق يمحو منك داء القهار ويبعث الرحمة من فؤادك على ولديك لطالبتك به وأرغمتك عليه ولكني ان تركتهما فأنت تاركهما مثلي وليس لهما الا الله وليا ونصيرا

ثم صمتت هنيهة تستجمع قواها التي بددها الاسى واحتدمت في كلماتها لتنال منه وقالت « أترضى وأنت بعلي أن آكل من ثديي أو أقاسم بعرضي كما تفعل بمالك لأزدرد لقيمات لا تسوغ بين لهاي والترائب . رحمة أيها الرجل بنفسك ثم بنفوسنا . وهل تعاقبنا لأن أمرنا نيط بك . والمرء في دنياه إن تنحّى عن المسؤولية وتنكّبها الى طريق غير شريف جدير به القبر ان لم يأنف أن يضمه . ثم أجهشت في البكاء والرجل أمامها وأنا خارج الدار في صمت وسكون هو مثقل بعبأ الخطيئة وأنا باهت لما سمعت وكأن عباراتها قدح لزناد عينيه فأوريا بالدموع الغزيرة . ثم ارتمى عليها ليقبل يديها أثيم يتطلّب غفرانا وسيء يتلمس احسانا ثم قال والتوبة الصادقة تتماوج في مقاطع كلماته « زوجتي لا تحزني عفوك أرتجي ورضاك أطلب . ناشدتك الطهرَ الذي يعلو هامتك تاجه . ووفائك

الذى عزّ على الزوجات مثله . أن تقبلى توبتى وتغفرى ذلتى وأعاهدك الله أن أجانب اليسير ما عشت حيا ولك بعد اليوم نفسى وتلبي ومالى وشبابى ثم أرتج عليه القول ولقد يفحم اللسان عن البيان فى أشد ما يكون بحاجة اليه الانسان . ولو كنت وقتئذ على ملأ من الناس لقالوا مجنون خليق به المارستان . فبينا الدموع تجرى فى أخاديد خدي كان الابتسام يزهو على فمى . بكيت للشقاء وابتسمت للتوبة وسرت أناجى النفس بجلالة هذا الدرس ومهما قام علماء الأخلاق فى ارجاء الارض وحللوا النفس الانسانية الى دقائق وذرات لما استطاعوا أن يردوا هذا القاصر من ذات الصدع الى ذات الرجع كما ردته زوجته . وما عجبت أن تسلك المرأة بالرجل طريق الهداية وتحميه غوائل الغواية فهى ان شاءت كانت ملكا رحيما وان شاءت كانت شيطانا رجيما

هنا عييت بما شهدت ولقيت فأزمعت التغلغل بين قصور الاغنياء علّ أن لم أشاركهم فى سكناها ففى استجلاء بهاها . لولا صفير يوقر الاذان ويكاد يهدم البنيان فوقفت كالمأخوذ وظننت قدماى تقلتنى من حيث لا أدرى الى ميدان

حرب تدوى فيه المدافع به طعن وضرب يكل حياله المُدافع
ولكني أقدمت اقدام عنتره على الحمام . وتقدمت تقدم
الظافر الى الامام . فرأيت ثم رأيت ملهى يضحك الشكلى
نيف وعشرين امرأة بين مزيلة براها الشبق وبادنة كالبهيمة
الراتعة وبين حسناء مقبلة وشوهاء مدبرة وناهد كعاب
كزينب والرباب وزرديبس لاج فجر الشيب في ليل شبابها
ترتجف أجسامهن وترتعد فرائصهن ويتقضقضن عصلهن
وتصطك أسنانهن وبينهن عازفات نادبات صارخات مولولات
فعلت لنفسي « بئس سكان الدار أنهن في حفلة زار . مالي
ولهن . وقد أصبن عمن الجن والحمير أزواجهن يثقوق
بما يقلن . علم الله ان المرأة جنية والرجل معتوه وان الدنيا
دار فتون ولله في خلقه شؤون » وسرت حيثما هربا لا طربا
ووصبا لا عجبا وأنا أرفه عن النفس عنائها وأقول ليلة ليس أكثر
عن ثقالها . والآن أنا حيال ملوك المال في ديارهم واقعين
على الأرائك متكئين فضة أينما انفضوا وذهب أينما ذهبوا
وشرفات القصور تكاد تصافح الجوزاء أو توشك ان تقبل
خد السماء أينعت بها حدائق غناء ورياض فيحاء وبساتين

نضراء ومروج خضراء كأنها قطع الجنان والزهر يفوح عبيره ويعانق صغيره كبيره وبستان ما بين سكنى الثرى وسكنى الثريا . وبعد ما بين أهل الجنة وبين أهل الدنيا وكان بينها قصر كثرت زوّاره وزادت أنواره واتسعت رحابه وانفتحت أبوابه فذكرت حين رؤيته الطفيلين وجرأتهم وعولت ان انهج شرعتهم فدخلت مع الداخلين كأني أحد المدعوين . وهناك في ناحية من فناء القصر الحوذي يغازل الوصيفة وهي تمانع كأنها عفيفة احدى بنات الروم خلبت لب وليد الصعيد تسبه بوطانه لا تفهم وهو يحامشها ولا يتكلم فقلت هذا حال العبد فما حال مولاه . وصعدت الدرج وانا أقول يا الله — في الطابق الاعلى مثل الدعارة الأعلى زنت بمضنها الكؤوس ومالت الرؤوس وتعانقت بالايدي الخصور وازدانت بالقلائد النحور وبب الدار صريع بين ندمائه وربة الدار في احضان من تهواه وخدام تروح وتغدو وتختفي ثم تبدو وبايديهم صهباء مزاجها سم ومغبتها ندم فعدت ادراجي من حيث أتيت وانا استغفر الله مما رأيت وما سرت قليلا حتى كان القمر قد سطع والسحب قد

انجابت والهزيع الثالث من الليل يمدو غير متئد . في هذه الساعة التي تجلت الطبيعة في ازهى رداء لها ابصرت نجيبين في الهوى متسجيين بالجوى . فتى تكاملت فتوته وكملت نبوته وسيم المحيا وضاح الجبين كأنه شقيق البدر وفتاة في صباها رياة بهاء الملاحة كأنها اخت الشمس ومن عجب ان يتقابل البدر ذكاء على متن النهراء

فالتصقت بالجدار اسمع ولا أرى فاذا به يقول لها « احبك بل اعبدك » وهي تقول « احبك بل اعبدك » فكاد يدفعني التيظ ان أقول لها « لا تصدقيه انه كاذب » واقول له لا تصدقها انها كاذبة » أيهذا العاشقين زين لكما الشباب الحب والدنيا خالية من الحب ولكم احببنا فما لقينا إلا عذابه القلب . وضاع الحب عندنا من جازانا عليه التكريب . ان عبدتها يافتى عبدت هي سواك . وان عبدتيه يا انسانة ازدرى بهواك . كلا كما خادع مخدوع . فأقصرا من التمادي في الرياء والاقويل لكما من في السماء وحدثت نفسي علام الاصغاء وحديثها هراء في هراء فسرت بحيث صرت أزاء النيل وكأنه حين نظرته يسألني ان أوافيه بحديث فقلت

« يانيل فيك ومع مائك الفضفاض سال تاريخ القرون وبين موجاتك انطوت السنون وأنت أنت مُدر الخير على أهل المصر . فهل أجد لديك تأويلا لما رأيت الليلة من احلام وتفسيراً لما شاهدت من حال الاقوام » واذا بصوت شجى يبعث الشجى لا أعلم مصدره ينشد قصيداً

تمنى وفى المنى قصر العمـ ... ـر فنعدو بما نُسر نُساء

صحة المرء للسقام طريق ... وطريق البقاء هذا الفناء

بالذى نغتذى نموت ونحيا ... اقتل الداء للنفوس الدواء

ليت شعرى حلما تمربنا الاي ... ام أم ليس تُعقل الأشياء

من فساد يجنيه للعالم الكو ... ن فما للنفوس منه أتقاء

نحن لولا الوجود لم نألم الفقـ ... ـد فايجادنا علينا بلاء

وقليلا ماتصحب المهجة الجسـ ... ـمَ ففيم الأسى وفيم العناء

واذا كان فى العيان خلاف ... كيف بالغيب يستبين الخفاء

ليت شعرى وللبلى كل ذى الخلـ ... ـق بماذا تميز الأنبياء

موت ذا العالم المفضل بالنطـ ... ـق وذا السارح البهيم سواء

لاغوى لفقده تبسم الازهـ ... ـار ولا للتقى تبكي السماء

أيها الناس حالكم أثر ماض ... بدء قوم للآخرين انتهاء